

أضواء  
على معركة  
ممر الجديدة  
أو جديد بوغاز

الدكتور محمد مصطفى الأعظمي  
جامعة الرياض - كلية التربية

في العدد الأول من مجلة الدارة مقالة قيمة كتبها الدكتور  
محمد سعيد الشغفي بعنوان « دراسات في تاريخ الدولة السعودية »

لقد اعتمد الدكتور الشغفي في بحثه على كثير من الوثائق الرسمية  
التركية التي لم تكن في متناول الباحثين من قبل . كما استفاد من بعض  
المخطوطات التي لا تزال محفوظة في المكتبات في الخارج . هذا الجهد العلمي  
أضفى على المقال طابعا أكاديميا . إلا أن هناك عدة نقاط استرعت انتباهي  
وهي خاصة بمعركة ممر الجديدة .

اعتمد الدكتور في تصوير تلك المعركة على ما ذكره محمد البسام في  
كتابه « الدر الفآخر في أخبار العرب الأواخر ، وكان المؤلف ضمن القوات  
السعودية في هذه المعركة - حسب زعم ابن البسام - لذلك يعد من شهود عيان  
معركة ممر الجديدة ، أو الخيف كما يطلق عليها البسام . كذلك اعتمد  
الدكتور على ما ذكره محمد علي باشا وطوسون باشا في تحليل هزيمتهم  
في هذه المعركة . لا اعتراض عندي على صحة نسبة هذه الوثائق إلا أنني أجد  
نفسى مضطرا إلى عدم تصديق محتويات بعض هذه الوثائق ، ومنها أمور  
ذكرها ابن البسام عن سير هذه المعركة .

سأذكر هنا ما دار في هذه المعركة حسبما ذكره فنائي الايطالي الذي كان  
جنديا في جيش طوسون باشا وكان قد اشترك في معركة ممر الجديدة ثم تناقش  
الاختلافات الموجودة بين رواية ابن البسام وفنائي من جهة وكذلك بين أقوال  
طوسون باشا وفنائي من جهة أخرى بغية الوصول إلى الحقيقة إن شاء الله .

## معركة ممر الجديدة حسب رواية فناتي الايطالي

يقول فناتي : بعد الاستيلاء على ينبع مكث الجيش المصري هناك مدة ثلاثة شهور ، ثم تحرك نحو ينبع البر Cara Lambi (١) في تتبع الوهابيين بعد أن تركت قوة كافية هناك .

لقد تجمع السعوديون في القرية وبدلوا قصارى جهدهم لتحسين وضعهم وتقوية مركزهم لكنهم جروا الى المعركة وكانت الهزيمة من نصيبهم ، نتيجة لذلك أصبح عدد كبير منهم تحت رحمة المنتصر ، وكان هؤلاء على الأغلب أصحاب الأراضي الذين لم يرغبوا في أن تفسد أراضيهم ومزارعهم . وقد قبل ذلك منهم طوسون باشا ووعدهم بالدفاع عنهم وأكرمهم ببعض الهدايا . بينما فر بعضهم وتحصنوا بالجبل وكانوا يراقبون الوضع من هناك لكنهم كانوا موضع الهجوم المستمر من قبل قواتنا والتي كانت تستولي على نسايتهم وحيواناتهم . لكن غالبيتهم تجمعوا وتحصنوا في نقطة هامة جدا وهي سهلة الدفاع ، ألا وهي نقطة ممر الجديدة Jadead Bogaz واستعدوا لمقاومة عنيدة مستميتة .

في هذه الفترة عسكرت القوات المصرية حول قرى ينبع البر لكنها كانت في وضع غير مريح . كانت المنطقة مملوءة بالعقارب وتسببت في موت كثيرين حتى كان بعض الجنود يفضلون البيت على رأس النخيل بدلا من الغيام . كما كانت هناك حشرات مؤذية أخرى . وكان الجو حارا ، لذلك أصبح الوضع سيئا . لاحظ طوسون باشا أن أي تأجيل في المعركة يمنح العدو فرصة ثمينة لتقوية مركزه وتحسين موقعه ، لذلك قرر أن يطردهم على الفور من ذلك المكان المحصن أو يجبرهم للحرب ، لأن بقاءهم وتحصنهم واستيلائهم على تلك المنطقة يمكنهم من التحكم على الطريق المؤدي الى المدينة المنورة ويقضي على كل آمنيات الجيش المصري وتطلعاته للوصول اليها . لأن ممر الجديدة شعب ذو حصانة طبيعية نادرة Is a defile of very uncommon natural strength وعرض الشعب في بعض الأماكن لا يسمح لمرور أكثر من عشرة أشخاص في آن واحد بينما يرتفع جبل عال ذو انحدار شديد في كلا الجانبين بحيث يمكن لعدد قليل من الناس مقاومة الجيش بكامله .

(١) يذكر المؤرخ الفرنسي ميتزن اسم هذا الوضع Janbo de Terre بينما يذكره علي بك باسم Yanbea en Nahal كما ذكره Banks

كان هناك ما لا يقل عن ٢٥٠٠ « سمودي » تجمهوا للدفاع عنه . ولو ان وصولهم كان هناك حديثا لكنهم استفادوا من كل دقيقة من أوقاتهم استفادة تامة ، فقد بنوا متاريس مرتجلة على شفا الجبل ترتفع علو الصدر من الحجارة المفككة ، بحيث تحميهم عند اطلاقهم للنيران ولا ينكشفون لبندقيتنا .

نظرا لطبيعة المنطقة فمدفيعتنا لم تكن ذات فائدة اطلاقا ، لأننا لم نكن نستطيع استعمالها وان استعملناها فلن تؤثر عليهم . هذه الموائق لم تكن غائبة عن بالنا ، لكن كل تأخير يكون في مصلحة هؤلاء بحيث يزيد عددهم ، لذلك حدد يوم قريب للتحرك من ينبع البر . وفي اليوم المحدد قبل ان نتحرك من ينبع البر خطب طوسون باشا في الجيش خطبة بليغة بين فيها أهمية ممر الجديدة وضرورة ابعاد العدو من تلك المنطقة ، لأن المهمة بكاملها تتوقف على هذه النقطة . اذ بدون الاستيلاء عليها ليس هناك أمل مطلقا للوصول الى الحرمين ، الهدف الذي لأجله خرجنا من بيوتنا ووصلنا الى هنا . وقد أثبتنا جدارتنا في ينبع وينبع البر . واذا غاب عن أعيننا لحظة واحدة أهميته فلا يمكننا ان نعد أنفسنا مؤتمنين ولا نكون جديرين بالاحترام المعطى للجيش المصري . وذكر أنه تسلم خطابا من أبيه محمد باشا يشني فيه على انتصاراتهم السابقة ويذكر فيه ابتهاج الناس بانتصارات الجيش المصري . ثم قال طوسون : وعلى هذا كم يكون مسينا ومؤسفا اذا أفسدتم كل هذا بتصرفاتكم في المستقبل وعدمكم كل ما بنيتموه من المجد وقضيتكم على آمال الناس وتوقاتهم وتطلعاتهم . اذن ليس أمامنا الا ان نتقدم ، ونتقدم في طريقنا الى النصر حتى نصبح محرري المدينة حقيقة لا اسما .

ونظرا لضخامة العدد وعدم وصول صوته الى كافة الجيش كان العساكر يرددون خطبته ليسمع الجميع ، وكان لها تأثير بليغ جدا .

بدأ بعد ذلك التحرك على الفور .

يقول فناتي : قطعنا مسافة طويلة في اليوم الاول ومشينا في اليوم الثاني أكثر من ذلك ووصلنا مساء ذلك اليوم الى بدر Bedrion حيث يستريح الحجاج عادة يومين أو ثلاثة ولكننا لم نمكث في تلك القرية ولا ليلة .

ولقد تحركنا من بدر بعد منتصف الليل ووصلنا الى ممر الجديدة في وضع النهار ، وبدأنا بنصب الخيام في الأراضي السهلة المعاملة بالجبال العالية .

يقول فناتي : قبل أن أبدأ يسرد تفاصيل المعركة أود أن أذكر الاحتياطات التي اتخذها قائدنا الشاب قبل الغوص بمعركة ممر الجديدة \*

لقد كان هناك عدد كبير من المراكب الصغيرة مرتبطة بهملتنا \* وكانت هذه المراكب راسية على الساحل في انتظار تحركاتنا وامدادنا بالمؤن ما بقينا في ينبع أو ينبع البر لكن عندما تقرر ذهابنا الى المنطقة الداخلية أمرت المراكب للتحرك الى ميرك Mobrek وهي منطقة ساحلية تبعد ثلاث ساعات أو أربع عن مكان المعركة، بحيث يمكن اللجوء اليها في حالة الانهزام أو أية مشكلة طارئة أخرى ، إذ لم تكن هناك قرية واحدة خلفنا كان يمكننا اللجوء اليها في حالة التراجع \*

لذلك أوقفت كل التحركات العسكرية في ممر الجديدة حتى تصلنا الأخبار عن طريق مخابراتنا بوصول السفن الى المكان المحدد \* ولم تكن هذه الخطوة ضرورية لحل مشكلة التراجع فقط ، بل كانت ضرورية أيضا اذا اضطررنا الى البقاء في المعركة مدة أطول مما كنا تصورناه ، لأجل تموين الجيش \* وصلتنا الاشارة بوصول المراكب وبدأنا بالاستعداد \* وكنا نرى العدو أمامنا على الجبلين في عدد كبير \* وكأنهم كانوا ينظرون إلينا من الأعلى بازدياد واحتقار ، وكأنهم واثقون بانتصارهم \*

ثم خطب طوسون باشا مرة أخرى خطبة حماسية عظيمة وبين فيها أنه يشترك معهم في المعركة كجندي عادي وسيكون في صفوفهم كأحد الجنود لا كتقائد الجيش \*

أعطيت الاشارة في اليوم التالي لبدء المعركة - وبدأت المناوشات وقد أسفرت بخسائر أكبر في جانبنا - وكان ذلك بسبب موقعنا الطبيعي المكشوف \* واستمر الوضع هكذا ثلاثة أو أربعة أيام ثم تقرر التخلي عن هذا التطور من القتال لعدم جدواه لأنه لا يمكن أن يوصلنا الى نتيجة مرضية على هذا الطريق \*

ولقد استعملت هذه الخطة طمعا في سحب العدو للخارج من مكانه المعصن على الجبال \* وعندما تبين أنه لا يمكن جرهم الى مكان مكشوف تقرر الهجوم عليهم في معقلهم في اليوم التالي \*

قبل طلوع الشمس كان الجميع مسلحين \* ونفذ الجيش الأوامر المعطاة له للتقدم عند طلوع الفجر واندفع بكامله بعنف شديد للضغط على الجيش العربي ليجبره على التخلي عن المرتفعات وأطلقت التيران المكثفة من كلا الجانبين \* ولم يكن إطلاق النار على هذا المتوال في بداية الأمر فحسب بل استمر الوضع هكذا \*

وكان اصرار جانب على القتال يوازي جسارة الجانب الآخر ، حتى بدأ يظهر أن الوصول الى الهدف مشكوك فيه .

تقدم طوسون باشا بنفسه وكان يتنادي بعض الماسكر بأسمائهم وكان يذكرهم بالحرمين وبأنهم من جيوش مصر .

لم يكن الجيش في حاجة الى هذا التشجيع . على كل يبدو أن تشجيعه جاء بأثر ، إذ تمكن الجيش قبل منتصف النهار من الاستيلاء على بعض المواقع المحصنة رغم الانحدار الشديد للجبل ، وكان ذلك تحت وابل من الرصاص من قبل العدو . لكن هذه المواقع كانت عديمة الفائدة بالنسبة لنا . إذ فتح للسوديين نقاطا أخرى للقتال ، وكان هؤلاء يمحطرون الرصاص من الأعلى بينادقهم وكانت النتيجة القتل العام لجنودنا هؤلاء .

في منتصف النهار أصبحت الشمس محرقة لا تطاق وأصبح المستحيل لكلا الطرفين المضي في المعركة وعلى هذا سادت الهدنة لعدة ساعات . وانصرف الماسكر وبدأوا يستريحون تحت ظل النخيل الذي كان متوافرا ، ولم يكن التخييل مصدر غل فقط لهؤلاء الجنود بل كان مصدرا للغذاء أيضا .

بدأ الجنود يشعرون بالعطش الشديد ولم تتمكن أغليبتهم من اروائه . لأننا لم نكن نعرف أماكن الماء في تلك المنطقة ، لذلك عندما أعطيت للجيش إشارة التحرك في حدود الساعة الرابعة نفذها الجيش البائس وكأنه فرح بذلك .

لم تكن النيران في بادئ الأمر شديدة ولا مؤثرة كثيرة ، ربما كان ذلك بسبب الارهاق أو الأمر آخر ، لكنه بدأ التحمس يظهر بعد فترة . وأصبح القتال أكثر ضراوة مما كان عليه في أول النهار . وفي الواقع فإن ضراوة الحرب وكثرة الضحايا تفوق البيان . واستمر القتال ، لكنه اتضح بعد غروب الشمس بفترة أن الوصول الى الهدف لا يزال مشكوكا فيه .

كان قد مضى من الليل ساعتان فإذا بنا نجد أنفسنا على الطريق دون أن نعلم السبب ، أهو دعر مفاجيء ، أو نكية حلت بنا .

كان هناك الهرب وكان هناك التعقب ولكن بالفوضى والارتباك حيث لم يكن من الممكن تمييز شيء من آخر . وقد قتل بعض كبار الوهابيين في وسط جيوشنا من قبل الوهابيين أنفسهم ، إذ لم يكن من الممكن التفرقة فيما بيننا وبينهم وكان يتساقط عدد كبير منا على كل خطوة .

لقد وجد طوسون البقية الباقية من جيشنا التي رجعت معه الى المعسكر غير  
قابلة للدفاع نهائيا ضد عدو يعرف كل شبر من الارض ، بينما لم يكن امامنا أي  
خندق أو أي نوع آخر من التحصينات - لذلك بقي هؤلاء مدة بسيطة هناك تكفي  
لاحراق المعسكر والخييام متخلين بسبب استعجالهم صندوق للقنات المسلحة  
Military Chest ولم يبق للناس أمل الا في السرية الصغيرة المرابطة  
في مبرك .

ثم تحدث فئاتي عن طريقة هربه ووصوله الى مبرك وما لاقى في الطريق من  
المتاعب . الأمر الذي لا يهمنا هنا كثيرا .

هذا ما ذكره الجندي الايطالي الذي حارب مع الجيش المصري ، وكلامه ليس  
خطابا رسميا ، لكنه ما ارتأه .

دعونا ننظر الآن سير المعركة في كتابة ابن البسام كما نقل عنه الدكتور  
الشمعي .

يقول ابن البسام : « ثم جهز الملك الأعظم سعود بن عبد العزيز عساكر ما  
يقوم بحققا قائم ، وأمر ابنه عبدالله فيهم ، وأنفه الى ملاقاته الوزير المذكور حتى  
تزل بموضع من مواضع الحجاز غربي المدينة المقدسة ، اسمه الخيف . فنزل  
عبدالله بعساكره ، وأقام به منتظرا قدوم الوزير اليه با أهته ( كذا ) ، وسأمر  
قبائل الحجاز واليمن وغيرهم تبعا لعبدالله . ولا والله تغلب عليهم صاحب مصر عن  
ضعف منهم أو جبن بل خيانة من العريان ورضى من ساكني البلدان ، فساق الوزير  
عساكره الى الوهابي في سبعة آلاف . فلقية الوهابي بأربعين ألف مقاتل . قال  
المؤلف : وأنا منهم ، وقد حفر الوهابي على عسكره الخنادق وعمل المتاريس في ثلاثة  
أيام ، حتى توجهت السبعة آلاف اليه ، فأخذ الحرب بينهم ثلاثة أيام لم يجد عسكر  
الوزير مدخلا الى عسكر الوهابي ، لأجل أن السهل خندق والجبل مترس ، فضاعت  
الأرض بما رحبت على الوهابي وعساكره ، وكان مسعود بن مضيان المذكور ما يأمن  
الوهابي أن يحون عليه ، فلما نفذت ذخائر الوهابي وأواذعه ( ٢ ) ، واحتاج الى  
رجوع النفس ، بعث علي بن مضيان من مكان يبعد عنه فيه ، فجاء معه ألف راية ،  
فلما رأوه عسكر الوزير بهذا العدد ، قالوا : هذا الوهابي الكبير ، يمنون سعود ،

( ١ ) مجلة الدارة ، المجلد الاول ، العدد الاول ، ص ٢٩ .

( ٢ ) كذا في الاصل ولعله الصواب وأرذاله .

والذي في اهل نجد ولده عبدالله ، فادبر عسكر الوزير ممشا ثلاث ساعات علي موضع يقال له بدر « (٣) » .

وينقل الدكتور من « رسالة بحث بها طوسون باشا السى والده يعلق علي هزيمته بقوله : انه بالاضافة الي محاربة سمود ومثانة واحكام مضيق الجديدة الذي لم يحسب له حسابا ، فانهم لم يحزموا امرهم كما يجب ، فقد توجهوا ارتجالا دون ايمان النظر فيما ينبغي عمله ، فقد حدث ما ظهر من التخلف والتأخر » « (٤) » .

ويعلق محمد علي باشا علي هذه الهزيمة بقوله : « ان انتصار ٢٠٠ من الغيالة علي خمسة آلاف كان مدعاة للغرور والطمع لدى طوسون باشا ومن معه ، فسبب ذلك انهم ارادوا ان يلحقوا موسم الحج ، ولذلك فانهم وضعوا في حسابهم ان يقطعوا المسافة بين الخيف والمدينة المنورة بالسرعة الممكنة ، فاكثفوا باخذ كميات محدودة من العلف والطعام والماء والذخيرة ، ولم يتخذوا الحيلة في حمل المزيد حتى اذا تجاوزوا بدر وبلغوا مصر جديدة فوجئوا بحشود القوات السعودية « فآخذوا بالمباغاة ، (٥) » .

#### المقارنة بين كلام ابن البسام وغيره من المؤرخين بصدد هذه المعركة :

١ - يتفق فناتي الايطالي وسينفن الفرنسي وكتابات طوسون باشا وكذلك تعليقات محمد علي باشا بأن الحرب الفاصلة كانت في مصر الجديدة ، بينما ابن البسام لا يعطينا وصفا دقيقا من مكان المعركة ، بل قد يفهم من كلامه ان المعركة كانت في الأراضي السهلة ، او على الأقل لم يكن للجبل أهمية كبيرة في المعركة خلافا لما وصفه الآخرون ، وانا ارجح ان المعركة بكاملها كانت في مصر الجديدة .

#### ٢ - النقطة الثانية :

يقدر فناتي عدد الجيش السعودي « بـ ٢٥٠٠ تقريبا ، وشيخ الحويطات الشيخ نعر شديد يقدر الذين كانوا مع الأمير عبدالله بن سمود بخمسة آلاف من الهجانة والخيالة والمشاة وشيخ الحويطات هذا هو المكلف بمراقبة التحركات السعودية وكان تقديره المذكور قبل معركة مصر الجديدة بعدة ايام ، بينما يقدر

(٣) المصدر نفسه ص ٢٩ .

(١) المصدر نفسه ص ٢٩ .



ابن البسام بأن عددهم كان أربعين ألفاً ، وهو ثمانية أضعاف تقدير الشيخ نصر ستة عشر ضعفاً من تقدير فناتي ، وأرجح أن الجيش السعودي لم يكن يتجاوز خمسة آلاف • لأن هذا التقدير قريب من تقدير فناتي • ويمكن القول أن تقدير فناتي لم يكن دقيقاً بل قدر أقل مما كان الجيش السعودي لعدم معرفته بالدقة التامة ، لكن يصعب علينا أن نوافق على تقدير ابن البسام ، وعلى الأغلب تقدير شيخ الحويطات ، وهو عربي أصيل من الجزيرة وشيخ القبيلة وكان بيدر ، وفي الوقت ذاته كان عينا للجيش المصري يكون تقديره أقرب إلى الصواب ، ولا يستبعد إذا كان هو بنفسه قدر أكثر قليلاً •

في ضوء هذه الملاحظات تبدو تقديرات ابن البسام مبالغاً فيها كثيراً •

٣ - قول ابن البسام : فأدبر عسكر الوزير ممشى ثلاث ساعات على موضع يقال له بدر غير دقيق • لأننا نعلم من وصف فناتي بأن طوسون باشا والجيش المصري كلهم هربوا إلى مبرك ولجأوا إلى السفن التي كانت في انتظارهم هناك •

فإن كان الأمر كذلك ، بأن الجيش السعودي لم يكن أكثر عدداً من الجيش المصري وكذلك لم يكن مسلحاً مثله ، كما أنه لم يكن يملك السفن والبواخر ، إذن في هذه الظروف هل كان من المستحسن أو هل كان من الممكن تعقب القوات السعودية للجيش المصري ؟ ربما لم يكن كذلك • وعلى هذا ما أورده الدكتور من الملاحظة في عدم ملاحقة القوات السعودية لجيش طوسون تتطلب - عندي - إعادة النظر •

٤ - ما قيمة كتاب ابن البسام ؟

يذكر ابن البسام أنه كان شريكاً في المعركة ، وعلى هذا يجب أن يكون لكلامه مكانة كبيرة لدى الباحثين ، ولكن تقديره للجيش السعودي ووصفه للمعركة يدل على عدم دقته ، إن لم يكن على عدم اشتراكه •

زد على ذلك التعبيرات التي استعملها في كتابته تتطلب التريث في الحكم عليه من أمثال :

فساق الوزير عساكره إلى الوهابي ••

فلقية الوهابي بأربعين ألف ••

وقد حفر الوهابي على عسكره الخنادق •

فضاقت الأرض بما رحبت على الوهابي وعساكره ••• الخ •

لأن كلمة « الوهابي » لم تكن تستعمل من قبل اصحاب الدعوة السلفية ، بل هذا الاسم أطلقه عليهم اعدائهم أيام دعوة الشيخ محمد بن عبد الوهاب رحمه الله ، لذلك استبعد استعمال هذه التعبيرات من قبل رجل يدعى انه كان يحارب في صفوف الامام ابن سعود . من الجائز ان يقال انه اشترك في المعركة دون ان يكون قد تشرب روح السلفية ولذلك استعمل هذا التعبير . لكن ماذا نقول في كلامه : « فضاقت الأرض بما رحبت على الوهابي وعساكره . . . » كيف نقول هذا وكان النصر حليفه . وقبل أن ينتصر كان يقود جيشا أكبر من الجيش المصري بستة اضعاف — حسبما ذكره ابن البسام — فكيف ضاقت عليه الأرض ؟ ومهما يكن من أمر فانه لا بد من دراسة نقدية لشخصية ابن البسام ، وكتابه لاعطائه ما يستحق من التقدير والتوثيق .

٥ — لم يكن طوسون باشا غافلا عن خطورة المعركة ولذلك رتب أمور السفن وهي محملة بالمؤن لتتمده اذا اضطر للبقاء أكثر او تحميهِ اذا اضطر للهرب . كما انه لم يترك جيشا كبيرا لا في ينبسج ولا في البر بل اصطحب معه أكثر جيشه . وكانت له عيون وأعوان حتى من بعض القبائل كما رأينا في قضية شيخ الحويطات . لذلك فان قوله انه لم يأخذ الاحتياطات الكافية غير صحيح .

أما النصر فقد كان من نصيب من كان يدافع عن عقيدته .

وما النصر الا من عند الله .

٦ — ما جاء في تعليق محمد علي باشا على الهزيمة فهو تبرير غير مقبول .

اذ لم يشترك في معركة بدر أو في أية معركة من قبل الجيش السعودي وعدده خمسة آلاف مقابل ٢٠٠ خيالة من الجيش المصري ثم كان النصر حليفا للجيش المصري والهزيمة من نصيب الجيش السعودي .

لذلك ما قاله محمد علي باشا بأن انتصار ٢٠٠ من الخيالة على خمسة آلاف كان مدعاة للغرور والطمع لا يبدو صحيحا .

على هذا يمكن القول بأن طوسون باشا استعد للمعركة تماما وكان قد غلط لكافة الاحتمالات ومعه جيش مدرب يفوق خصومه عددا وعدة ، لكن النتيجة لم تكن في صالحه ، فقد انهزم أمام جيش قليل في العدد ضعيف في التجهيز لكنه قوي في الايمان ، ومن ينصر الله فلا غالب له . . .